شرح الأربعين النووية

الحديث الواحد والثلاثون

عَمَلٍ إِذَا عَمِلتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ

اللقاء الرابع والثلاثون

الحديث الواحد والثلاثون:

عَنْ أَبي العَباس سَعدِ بنِ سَهلٍ السَّاعِدي رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي -ﷺ- فَقَالَ: يَا رَسُول الله: دُلَّني عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ، وَأَحبَّني النَاسُ؟ فَقَالَ: "ازهَد في الدُّنيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وازهَد فيمَا عِندَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ" حديث حسن رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة.

ترجمة الراوي:

سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة، الإمام الفاضل المعمَّر، بقية أصحاب رسول الله -ﷺ-، أبو العباس الخزرجي الأنصاري الساعدي، وكان أبوه من الصحابة الذين توفُّوا في حياة الرسول -ﷺ-، كان سهل يقول: شهدت المتلاعنين عند رسول الله -ﷺ- وأنا ابن خمس عشرة سنة.

وقال ابن حبان: كان اسمه حزنًا، فسماه رسول الله -ﷺ- سهلًا.

وهو آخر مَن مات بالمدينة من الصحابة، توفي سنة إحدى وتسعين، ومروياته مائة حديث وثمانية وثمانون حديثًا.

منزلة الحديث:

هذا الحديث هو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام؛ إذ الزهد في الدنيا فيه محبة الله، والزهد فيما عند الناس فيه العزة والعفة ومحبة الناس.

قال ابن رجب رحمه الله: قد اشتمل هذا الحديث على وصيتين: إحداهما: الزهد في الدنيا، وأنه مقتضٍ لمحبة الله عز وجل، والثانية: الزهد فيما في أيدي الناس؛ فإنه مقتضٍ لمحبة الناس [جامع العلوم والحكم].

شرح الحديث:

((يا رسول الله، دلني على عملٍ إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس))، وهذا الطلب لا شك أنه مطلب عالٍ يطلب فيه هذا السائل ما يجلب محبة الله له، وما يجلب محبة الناس له، ((فقال)) الرسول -ﷺ-: ((ازهد في الدنيا يحبك الله)) الزهد: ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا، وإن كان حلالًا، والاقتصار على الكفاية، والورع ترك الشبهات، وقالوا: أعقل الناس: الزهاد؛ لأنهم أحبوا ما أحب الله، وكرهوا ما كره الله من جمع الدنيا، واستعملوا الراحة لأنفسهم، وقد وصى النبي -ﷺ- جماعة من الصحابة أن يكون بلاغ أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، منهم سلمان وأبو عبيدة بن الجراح وأبو ذر وعائشة[جامع العلوم والحكم]، ووصى ابن عمر أن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، وأن يعد نفسه من أهل القبور [رواه البخاري].

وقال الشافعي رحمه الله في ذم الدنيا:

ومَن يَذُقِ الدنيا فإني طعِمْتُها وسيق إليَّ عَذْبها وعذابها

فلم أرَها إلا غرورًا وباطلًا كما لاح في ظَهرِ الفلاة سرابها

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ هَمُّهنَّ اجتذابها

فإن تجتنِبْها كنتَ سِلْمًا لأهلها وإن تجتذِبْها نازعَتْك كلابها

فطوبى لنفسٍ أُولِعَتْ قَعْرَ بيتِها مُغلّقة الأبوابِ مُرْخًى حِجابُها

((وازهد فيما عند الناس))؛ أي: أعرض عما في أيديهم من الدنيا ((يحبك الناس))؛ أي: لأنهم منهمكون على محبتها بالطبع، فمن زاحمهم عليها أبغضوه، ومن زهد فيها وتركها لهم أحبوه.

ومن زهد فيما في أيدي الناس وعف عنهم، فإنهم يحبونه ويكرمونه لذلك، ويسود به عليهم، كما قال أعرابي لأهل البصرة: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بِمَ سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

إن محبة الله للعبد من أعظم ما يوفق إليه الإنسان، فمن أحبه الله أكرمه، ووضع له القبول في الأرض، ومن أبغضه وضع له البغضاء في الأرض، ولقد بيّن -عليه الصلاة والسلام- في هذا الحديث سبب محبة الله لعبده وسبب محبة الناس له، ومعلوم أن الإنسان يشعر بسعادة عظيمة إذا كان يحيا في مجتمع يحبه، ومن أحبه الناس ألفوه وعايشوه وتعاملوا معه.

فمِن تلكم الأسباب التي تحقق هذه المحبة، والتي جاء ذكرها في هذا الحديث:

الزهد في الدنيا الرغبة عنها، وأن لا يتناول الإنسان منها إلا ما ينفعه في الآخرة، وهو أعلى من الورع، لأن الورع: ترك ما يضر من أمور الدنيا. الشيخ ابن عثيمين

الزهد: هو الإعراضُ عن الشيء، وتَرْكُه، واحتقارُه، والتَّرفُّع عنه؛ لحقارتِه، ودُنوِّ قيمتِه.

والزُّهد في الدنيا: هو تَرْكُ التَّعلُّقِ بها لِحَقارتِها، وخِسَّتِها، ولحاجةِ العاقل إلى الانشغال بالآخِرة عنها.

الزهد في الدنيا، والزهد هو الانصراف عن كل ما لا ينفع في الآخرة، بأن نخرج من قلوبنا حب الدنيا والحرص عليها والرغبة إليها، فتصبح الدنيا في يدك، وحب الله والآخرة في قلبك.

والدنيا: هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت بذلك لوجهين:

الوجه الأول: دنيا في الزمن.

الوجه الثاني: دنيا في المرتبة.

فهي دنيا في الزمن لأنها قبل الآخرة، ودنيا في المرتبة لأنها دون الآخرة بكثير جداً، قال النبي -ﷺ-: "لَمَوضِعُ سوطِ أَحَدِكُم في الجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وَمَا فيهَا"، وقال النبي -ﷺ- "ركعَتَا الفَجرِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فيهَا" إذاً الدنيا ليست بشيء.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنَ التَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا، وَالْإِخْبَارِ بِخِسَّتِهَا، وَقِلَّتِهَا وَانْقِطَاعِهَا، وَسُرْعَةِ فَنَائِهَا، وَالتَّرْغِيبِ فِي الْآخِرَةِ، وَالْإِخْبَارِ بِشَرَفِهَا وَدَوَامِهَا؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا أَقَامَ فِي قَلْبِهِ شَاهِدًا يُعَايِنُ بِهِ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَيُؤْثِرُ مِنْهُمَا مَا هُوَ أَوْلَى بِالْإِيثَارِ".

ومن الآيات التي تُزهِّد في الدنيا وتُرغِّب في الآخرة؛ قوله -تعالى-: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[الأعلى: 16- 17]؛ وقال -تعالى-: (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)[الأنفال: 67].

قال ابنِ تيمية -رحمه الله-: "الزُّهْدُ: تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ".

وقال ابنِ القيم -رحمه الله-: "الزُّهْدُ: سَفَرُ الْقَلْبِ مِنْ وَطَنِ الدُّنْيَا، وَأَخْذُهُ فِي مَنَازِلِ الْآخِرَةِ".
وقال الإمامِ أحمدَ -رحمه الله-: "الزُّهْدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: الْأَوَّلُ: تَرْكُ الْحَرَامِ. وَالثَّانِي: تَرْكُ الْفُضُولِ مِنَ الْحَلَالِ. وَالثَّالِثُ: تَرْكُ مَا يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ".

ويكفي في فضيلة الزُّهد: أنه اختيار نبيِّنا محمدٍ -ﷺ- وأصحابه -رضي الله عنهم-؛ ولذا نَبَذَ رسولُ الله -ﷺ- الدنيا وراء ظَهْرِه هو وأصحابه، وصَرَفُوا عنها قلوبَهم، وهجروها ولم يميلوا إليها، عَدُّوها سِجْنًا لا جَنَّة، فزهدوا فيها، ولو أرادوها لنالوا منها كُلَّ محبوب، ولَوَصَلوا منها إلى كلِّ مرغوب، ولكنهم عَلِموا أنها دار عُبور، لا دار سُرور، وأنها سحابةُ صيفٍ تنقشع عن قريب، وخيالُ طَيفٍ ما استتمَّ الزيارةَ حتى آذَنَ بالرحيل.

ليس المراد من الزُّهد في المال رَفْضَه؛ فإنَّ النبيَّ -ﷺ- قال: "نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ"(رواه أحمد).
وليس المراد من الزهد أيضاً رَفْضَ المُلكِ والرِّياسة؛ فسليمان وداود -عليهما السلام- كانا من أزهَدِ الناسِ في زمانهما، ولهما من المُلك ما أخبرنا اللهُ به، وكذا قال يوسف -عليه السلام-: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)[يوسف: 101].
وليس من الزُّهد أنْ يكون الرجلُ أشعثَ أغبر، لا يُحسِن ما يلبس؛ فإنَّ النبيَّ -ﷺ- قال: "لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ". قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ"(رواه مسلم).
وليس من الزُّهد أنْ يُحَرِّمَ المرءُ على نفسِه ما أحلَّه اللهُ له من الطَّيِّبات؛ قال -تعالى-: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ)[الأعراف: 32].
إذِ الحلالُ نِعْمَةٌ من الله على عبده؛ والنبيُّ -ﷺ- أوصانا فقال: "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ"(رواه البخاري). وقال أيضًا: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ"(رواه أحمد).

فشكر الله على نعمته والاستعانة بها على طاعته واتخاذها طريقًا إلى جنته، طريقة الأتقياء الأنقياء، ومعلوم أن كل الحضارات لا تقوم إلا على العلم والكسب والزواج، وحضارة الإسلام ما قامت إلا على هذا، أمرت بالكسب حيث قال -ﷺ-: "ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أنْ يأكلَ من عمَلِ يدِهِ وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عمَلِ يدِهِ ". رواه البخاري.

وأمر بالزواج فقال: "يا معشر الشباب: مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ". بل جعل النبي -ﷺ- الزهد في الزواج مخالفًا لهديه وسنته فقال: "وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي ".

ولكي نزهد في هذه الدنيا زهد الأتقياء والصالحين لابد أن نعرف شأن الدنيا وقيمتها؛ فقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسول الله -ﷺ- تزهّد في الدنيا وتبيّن حقارتها وقلتها وسرعة زوالها، وترغّب في نِعَم الآخرة الدائمة التي لا تنقطع، فمن تلكم النصوص قوله -جل وعلا-: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) [الحديد: 20]، فالدنيا منقطعة زائلة فانية، فلا ينبغي للعبد أن يشتغل بالفاني الزائل عن الباقي الدائم، كما دلت الآية على أن الحياة الدنيا غرور وباطل ولعب، وحقيقة اللعب ما لا ينتفع به، واللهو ما يلهي الإنسان عن الآخرة، ودلت الآيات على أنها زينة تصرف المفتون بها عن الآخرة، وأنها تفاخر بين الناس يفخر بعضهم على بعض بنعيمها الزائل من مال وولد وجاه وغيره، ثم شبّه ربنا سبحانه سرعة زوال الدنيا بالمطر الذي ينزل على الأرض فتهتز به وتخضر، ثم سرعان ما تعود إلى ما كانت عليه من جفاف واصفرار وموات، فكذلك حال نعيم الدنيا سرعان ما يزول وينقضي.

وأما من السُّنَّة فما رواه جابر بن عبد الله أنَّ رَسولَ اللهِ -ﷺ-مَرَّ بالسُّوقِ، فَمَرَّ بجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فأخَذَ بأُذُنِهِ، ثُمَّ قالَ: أيُّكُمْ يُحِبُّ أنَّ هذا له بدِرْهَمٍ؟ فَقالوا: ما نُحِبُّ أنَّهُ لَنَا بشَيءٍ، وَما نَصْنَعُ بهِ؟! قالَ: أتُحِبُّونَ أنَّهُ لَكُمْ؟ قالوا: وَاللَّهِ لو كانَ حَيًّا كانَ عَيْبًا فِيهِ؛ لأنَّهُ أَسَكُّ، فَكيفَ وَهو مَيِّتٌ؟! فَقالَ: فَوَ اللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ علَى اللهِ مِن هذا علَيْكُم". رواه مسلم.

وكما جاء في الصحيح أيضًا أن النبي -ﷺ- قال: " واللَّهِ ما الدُّنْيا في الآخِرَةِ إلَّا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحَدُكُمْ إصْبَعَهُ هذِه في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بمَ تَرْجِعُ؟ ".

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ -رضي الله عنه- قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ، وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: "مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"(رواه الترمذي).

فالمسافر على عَجَلٍ من أمره؛ فينزل تحت شجرة لِيَسْتَرِيح، ولا يَبْنِي تحتها؛ لأنه عمَّا قريبٍ راحل؛ فالنبيُّ -ﷺ-؛ شبَّه نفسَه في هذه الحياةِ العاجلةِ الفانية؛ كالرَّجُل المُسافِر، ينزل تحت الشجرة يستظل بها، وسُرعان ما يرحل عنها ويدعها.

عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قُبض".

وعن النعمان بن بشير – رضي الله عنه – قال: لقد رأيت نبيكم –ﷺ– وما يجد من الدَّقَل ما يملأ بطنه. والدَّقَل تمر رديء.

وعن عروة عن عائشة أنها كانت تقول: والله يا ابن أختي: إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، وما أوقد في أبيات رسول الله –ﷺ– نار. قلت: يا خالة: فما كان يعيشكم؟. قالت: الأسودان: التمر والماء.

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: أخرجت لنا عائشة – رضي الله عنها – كساء وإزارًا غليظًا، فقالت: قُبض رسول الله –ﷺ– في هذين.

وأخرج البخاري في صحيحه عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه أُتي بطعام وكان صائماً، فقال: قُتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو خير مني، فلم يوجد له ما يُكَفَّن فيه إلا بُردة، إن غطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطي بها رجلاه بدا رأسه، ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بُسِط – أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا – قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

وما جاء عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله قال: بعثنا رسول الله –ﷺ– وأمر علينا أبا عبيدة، نتلقى عيرًا لقريش، وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة. فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء.

الزُّهد له ثلاث علامات:

أحدُها: أنْ يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يده؛ فإنَّ الله ضَمِنَ أرزاقَ عبادِه، وتكفَّل بها، قال –سبحانه–: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)[هود: 6].

قال الحسن –رحمه الله–: "إِنَّ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِكَ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–".

والثاني: أنْ يكون العبدُ –إذا أُصِيبَ بمصيبة في دُنياه؛ من ذهاب مالٍ، أو ولدٍ أو غيرِ ذلك– أرغبَ في ثواب الله، ممَّا ذَهَبَ منه في الدنيا أنْ يبقى له.

قال عليٌّ –رضي الله عنه–: "مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ".

والثالث: أنْ يستوي عند المرء مدحُ الخلق، وذمُّهم، فالكلُّ عنده سواء.

قال ابن مسعودٍ –رضي الله عنه–: "الْيَقِينُ أَنْ لَا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ".

ويَظُنُّ البعضُ: أنَّ الزهد في الدنيا نَفْيُها بالكلية، والتَّخلُّص من جميع الأموال، والمُمْتلكات، فهذا فَهْمٌ خاطِئٌ لحقيقةِ الزُّهد ومعناه؛ ولذا قيل لسفيان الثوري: "أَيَكُونُ الرَّجُلُ زَاهِدًا، وَيَكُونُ لَهُ الْمَالُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ".

وقال ابن القيم: "فَمَتَى كَانَ الْمَالُ فِي يَدِكَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ، لَمْ يَضُرَّكَ وَلَوْ كَثُرَ. وَمَتَى كَانَ فِي قَلْبِكَ ضَرَّكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي يَدِكَ مِنْهُ شَيْءٌ".

النَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ *** أَنَّ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيهَا

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا *** إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيها

فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ *** وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيها

أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا *** وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

كم مِنْ مَدائنَ في الآفاق قد بُنِيَتْ *** أمْسَتْ خَراباً وأفْنَى الموتُ أهلِيها

لا تَرْكَنَنَّ إلى الدُّنيا وما فيها *** فالموتُ لا شَكَّ يَفْنِينا ويَفْنيها

واعْمَلْ لدارٍ غداً رِضْوان خازِنُها *** الجارُ أحمدُ والرَّحمنُ بَانِيها

قُصُورُها ذهَبٌ والمِسْكُ طِينَتُها *** والزَّعفرانُ حَشِيشٌ نابِتٌ فِيها

والذي يحمل العبد على الزهد في الدنيا قوة إيمانه، واستحضاره عظمة ربه، ووقوفه بين يديه واستحضار أهوال يوم القيامة، فإن ذلك يجعل حب الدنيا ونعيمها يضعف في قلبه، فينصرف عن لذائذها ويقتنع بالقليل منها.

ومنها أيضًا شعوره بأن الدنيا تشغل القلوب عن التعلق بالله، وتؤخر الإنسان عن اللحوق بدرجات الآخرة، وأن الإنسان سوف يُسأل عن نعيمها؛ قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) [التكاثر: 8].

ومما يعينك أيضًا على الزهد في الدنيا علمك بتحقير القرآن لشأن الدنيا ونعميها، وأنها لو كانت تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء، فشعور العبد النير القلب بهذا يجعله يزهد في الدنيا ويقبل على ما هو خير وأبقى؛ قال تعالى: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [الأعلى: 16، 17].

علمت أن الزهد في الدنيا طريق من طرق محبة الله –جل وعلا– لعبده؛ إذ من أحبه الله وفّقه لما يحب وأغدق عليه نعمه الظاهرة والباطنة، وهناك أسباب كثيرة توصلنا إلى محبة الله لنا، وترفع مقامنا عنده، نذكر منها:

⇦قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه حتى يتمكن الإنسان من عبادة ربه حق العبادة، التي تكون سببًا للتقرب إلى الله ومحبة الله.

⇦التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –ﷺ–: "يقول الله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ

عبدي بشيء أحب إليّ ما اقترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه". رواه البخاري.

⇦ومن الطرق الموصلة لمحبة الله لعبده متابعة الرسول –ﷺ– والاقتداء به بتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والابتعاد عما نهى عنه وزجر، فإن الله تعالى قال: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [آل عمران: 31].

إن هذه الآية تدل على صدق محبة العبد لربه؛ إذ لا يتم له ذلك بمجرد دعوة قلبه أو لسانه، فكم من أناس يدّعون محبة الله بقلوبهم وألسنتهم، وأحوالهم تكذّب دعواهم، فعلامة حب العبد لربه وحب الله لعبده طاعة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

⇦والقرآن والسنة مليئان بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين، وذكر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، فالإحسان إلى الخلق سبب المحبة؛ قال تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: 134]، والصبر طريق المحبة أيضًا: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران: 146]، والتقوى كذلك فإن الله يحب المتقين.

⇦وبالجملة فإن طريق محبة الله طاعة أوامره واجتناب نواهيه بصدق وإخلاص.

وأما طريق محبة الناس فإن النبي –ﷺ– علمنا كيف الوصول إليها فقال: "وازهد فيما عند الناس يحبك الناس".

فالإنسان المسلم المدرك لغاية خلقه في هذه الدنيا يعرف أن ما في أيدي الناس من حطام لا يستحق النظر إليه فضلا عن التنافس والتباغض والتحاسد من أجله وبالتالي يظل محبوبا بينهم، وللمسلم الكيس الفطن يعلم أن هناك غايةٌ أخرى هي أكبر وأجل من هذه اللعاعة الفانية فهو لا ينافس إلا على الآخرة ولا همَّ له إلا الآخرة.

قال–ﷺ–: "من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللَّهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللَّهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لَهُ" رواه الترمذي.

قال–ﷺ–:"الدنيا مَلْعُونَةٌ، مَلعونٌ ما فيها، إلَّا ذِكْرَ اللهِ وما والاهُ، أوْ عَالِمًا أوْ مُتَعَلِّمًا "السلسلة الصحيحة.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: طَالِبُ الدُّنْيَا مِثْلُ شَارِبِ مَاءِ الْبَحْرِ، كُلَّمَا ازْدَادَ شُرْبًا ازْدَادَ عَطَشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ.

قال عيسى عليه السلام: مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا، تِلْكُمُ الدُّنْيَا فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا.

السعيدُ من اختار باقيةً يدوم نعيمُها على باليةٍ لا ينفدُ عذابُها.

يقول الحسن البصري رحمه الله:" من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره".

العاقل لأسباب خلقه في هذه الدنيا والمدرك لطبيعة هذه الدنيا التي يعيش فيها لا يهتم إلا بما يقربه من الله ويرفع من درجاته في الآخرة.

ولا يتم ذلك إلا بالتعفف عما في أيدي الناس من حطام الدنيا الفانية، فمَنْ أراد أنْ يكون عزيزاً بين الناس؛ فَلْيَسْتَغْنِ عنهم، ولا يطلب منهم شيئاً، ولا يمد يدَه إليهم.

قال الحسنُ -رحمه الله-: "لَا تَزَالُ كَرِيمًا عَلَى النَّاسِ مَا لَمْ تَتَعَاطَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ؛ اسْتَخَفُّوا بِكَ، وَكَرِهُوا حَدِيثَكَ، وَأَبْغَضُوكَ".

وَقَالَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ: لَا يَنْبُلُ الرَّجُلُ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ خَصْلَتَانِ: الْعِفَّةُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَالتَّجَاوُزُ عَمَّا يَكُونُ مِنْهُمْ.

قال الْحَسَنُ: لَا يَكُونُ الرَّجُلُ زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا حَتَّى لَا يَجْزَعَ مِنْ ذُلِّهَا، وَلَا يُنَافِسَ أَهْلَهَا فِيهَا.

والإنسان بحاجة إلى محبة الناس إليه؛ لأنه يشعر بسعادة وانشراح عندما يعيش بين أظهر ناس يحبونه، ويشعر بضيق وانقباض عندما يحيا بين قوم يكرهونه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: " إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ".

ولكن علينا أن نعلم أنه لا ينبغي أن تكون محبة الناس لنا على حساب الحق والعدل، فإن هذا لا يجوز في دين الله -عز وجل- قال -ﷺ-: "من التمسَ رضا اللَّهِ بسَخطِ النَّاسِ كفاهُ اللَّهُ مؤنةَ النَّاسِ، ومنِ التمسَ رضا النَّاسِ بسخطِ اللَّهِ وَكلَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ" صحيح الترمذي.

أما الطريق إلى تحقيق الزهد في الدنيا: كما قال ابن القيم في "الفوائد": " لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظر في الدنيا: وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم حال الظفر بها وغم وحزن بعد فواتها فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها، ولا بد ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا، فهي كمال الله سبحانه والآخرة خير وأبقى، فهي خيرات كاملة دائمة وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة، فإذا تم له هذان النظران، آثر ما يقتضي العقل إيثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه فكل أحد مطبوع، على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الأجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له وأما لعدم رغبته في الأفضل.

قال -ﷺ-: ""مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِهِ، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ، فَكأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا" صحيح الترمذي.

فإذا حصل المؤمن هذه الثلاث؛ يجبُ عليه شكر هذه النعمة وينشغلُ بالدعاء، فيكثِرُ من العبادة، ويكونُ في طاعة ربِّهِ في زيادة، فأغنى الناس من رضي بما قسم الله، وكان عمَّا في أيدي الناس في زهادة، وأفقرُ الناس من لم يرض بما قُسم له، ومدَّ عينيه إلى ما متّع الله به غيره من عبادِه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "يا أبا هريرةَ! كُنْ وَرِعًا تَكُنْ من أَعْبَدِ الناسِ، وارْضَ بما قسم اللهُ لكَ تَكُن من أَغْنَى الناسِ، وأَحِبَّ للمسلمينَ والمؤمنينَ ما تُحِبُّ لنفسِكَ وأهلِ بيتِكَ، واكْرَهْ لهم ما تَكْرَهُ لنفسِكَ وأهلِ بيتِكَ تَكُنْ مؤمنًا، وجاوِرْ مَن جاوَرْتَ بإحسانٍ تَكُنْ مُسْلِمًا "صحيح الجامع.

قال يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ: مَا شُبِّهَتِ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ فَرَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يَكْرَهُ وَمَا يُحِبُّ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذِ انْتَبَهَ.

قِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: أَيُّ شَيْءٍ أَشْبَهُ بِالدُّنْيَا؟ قَالَ: أَحْلَامُ النَّائِمِ.

ذُكِرَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَقَالَ: أَحْلَامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ.

وقَالَ الحسن: يَتَوَسَّدُ الْمُؤْمِنُ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ فِي قَبْرِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَاغْتَنِمُوا الْمُبَادَرَةَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي الْمُهْلَةِ.

قال مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: بِقَدْرِ مَا تَحْزَنُ لِلدُّنْيَا فَكَذَلِكَ يَخْرُجُ هَمُّ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِكَ، وَبِقَدْرِ مَا تَحْزَنُ لِلْآخِرَةِ فَكَذَلِكَ يَخْرُجُ هَمُّ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِكَ.

قال سُفْيَانُ الثَّوْرِيِّ: كَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ: اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا، وَوَسِّعْ عَلَيْنَا مِنْهَا، وَلَا تَزْوِ بِهَا عَنَّا وَتُرَغِّبْنَا فِيهَا.

المراجع:

1. ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس: عبد العال سعد الشليّه.
2. الزهد في الدنيا ومحبة الله: محمد بو سنه.
3. ازهد في الدنيا يحبك الله: محمود بن أحمد الدوسري.
4. الطريق إلى الزهد في الدنيا: الشيخ عاطف عبد المعز الفيومي
5. الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.